

الخلفيات الاجتماعية للتفاعل التربوي في الجامعات العربية جامعة دمشق أنموذجاً

علي أسعد وطفة

مجلة المستقبل العربي مجلة فكرية سياسية

تصدر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت

العدد 214 - كانون الأول / ديسمبر 1996

(صص 74 - 86)

الخلفيات الاجتماعية للتفاعل التربوي في الجامعات العربية: جامعة دمشق أنموذجاً

علي وطفه

كلية التربية، جامعة دمشق.

مقدمة

تشكل العلاقات الاجتماعية-نسيج الحياة الاجتماعية-وجوهها، وتعكس منظومة من القيم الثقافية والاجتماعية السائدة التي تجبر بدورها عن صلاح الحياة الاجتماعية والثقافية القائمة في إطار المجتمع.

فالإنسان كائن رمزي، وهذا يعني أنه يتشكل بمقتضى جوهه على نحو رمزي أيضاً، وفي إطار هذا التشكل يمكن الإشارة إلى العلاقات التربوية بوصفها البوتقة الرمزية التي يتشكل فيها الكائن الإنساني.

وفي هذا السياق يمكن النظر إلى الجامعة بوصفها كينونة اجتماعية قوامها شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية، وهي بذلك تعكس نمط الحياة الاجتماعية وطابعها. وعلى هذا الأساس لا يمكن للجامعة أن تنفصل عن الحياة الاجتماعية، لأن الحياة الاجتماعية تتغلغل في داخلها، وذلك في صورة علاقات اجتماعية وفي صورة قيم ومفاهيم وتصورات. وذلك كله يعني أن الجامعة صورة مصغرة نوعية للمجتمع الذي تنتمي إليه، وهي بذلك يمكنها أن تعكس لنا بالضرورة نمط العلاقات الاجتماعية القائمة، وصورة العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع.

ومع ذلك كله لا يمكن للجامعة أن تكون صورة مصغرة ساذجة عن الحياة الاجتماعية لأنها تمتلك هوية وجودها الخاص وتمتلك قانونية فعلها المميز، وهذا يعني أنه يمكن للجامعة أن تلعب أدواراً حيوية في عملية التجديد الاجتماعي، وذلك في إطار علاقاتها الجدلية والدينامية مع الحياة الاجتماعية. فهي المعنية يقيناً ببناء أجيال العلماء والمفكرين، وهي القادرة على تشكيل الذهنية العلمية الضرورية لبناء حياة اجتماعية تتجه نحو الأصالة والتكامل.

الجامعة لا تتوقف عند حدود بناء العقل والمعرفة، بل تسعى إلى بناء الجوانب الأخ-
 الحياة الاجتماعية. فهي حرم الضمير لأنها تؤمن بأن المعرفة الإيجابية مهما غزرت
 ما لم تؤيدها مناعة أخلاقية ويزكيها سمو أخلاقي^(٢). ويضاف إلى ذلك كله أن الاتصال بين الأجيال وبالذات جيل الطلبة والأساتذة. والفرد هنا يتعرض لكافة التدي-
 والقيم الاجتماعية، وهذا ما يقوده بالتالي إلى تكوين منظور أكثر تركيبياً وواقعياً
 يقول محمد السيد سليم في وصفه للمبنية التفاعلية في الجامعة إنها «مكان لال-
 والفئات الاجتماعية وبوتقة لانصهارها في غمار عملية السعي المشترك نحو المعرفة»
 الذي تمارسه الجامعة هو فعل تربوي، أي ليس مجرد فعل تعليم، بل هو أوسع
 أثراً، فالجامعة تنبه في العقل الطاقات والمواهب وتوقظ الذات من سباتها السلبي^(٣).

أولاً: التفاعل التربوي

يشكل التفاعل الاجتماعي المنطلق الأساسي لاية حياة اجتماعية. ومن غير
 الحياة الاجتماعية جوهر وجودها^(٤). وغني عن البيان أن التفاعل الاجتماعي يتم
 من المعاني والأفكار والمفاهيم وقدرة الفرد على تبادلها مع الآخرين عن طريق
 الإشارة هنا إلى أن التفاعل الاجتماعي هذا لا يتم في فراغ، بل في سياق اجتماع
 الحاجة إلى الآخرين والحاجة إلى الارتباط بهم والانتماء إليهم^(٥). والتفاعل في الجاه
 من التواصل العميق والشامل التي تتم بين مختلف أطراف العملية التربوية؛
 والطلاب، وبينهم وبين المدرسين، وبين المدرسين والمدرسين، والمدرسين والطلاب
 وينسحب ذلك على المناهج والإداريين والعاملين في ميدان الحياة الجامعية، وبين
 التربوي طابعاً رمزياً بالضرورة وهو الشرط الضروري لكل فعل تربوي وعلمي في

ويعد التفاعل التربوي في المؤسسة الجامعية بمثابة الدورة الدموية في جسد ه
 وهو الإطار الذي تتجاذق فيه كافة أطراف العملية التربوية من مدرسين وما
 وتصورات ومقررات لتشكل لحمه الحياة الجامعية وسداها. وإذا كانت المؤسسة الج
 نظاماً يقوم بوظائف، فإن درجة التفاعل التربوي بين أقطاب العلاقة التربوية من
 العمل التربوي وفاعليته، ومؤشر مدى تادية هذه المؤسسة لوظيفتها ومهمتها علم
 ومعاني، ونعني بالتفاعل التربوي أيضاً درجة التوافق والانسجام والتكامل بين أط
 التربوية، وعلى الخصوص بين أعضاء الهيئة التدريسية والطلاب. وعندما تأخذ العا
 بين الطلاب وأعضاء الهيئة التدريسية اتجاه إيجابياً، نستطيع الإقرار بوجود در
 التفاعل التربوي. وعلى خلاف ذلك حين تأخذ هذه العلاقة اتجاه سلبياً نستطيع
 غياب التفاعل التربوي أو وجود تفاعل تربوي سلبي منخفض الوتيرة. فالتفاعل
 شكل من أشكال التفاعل الاجتماعي. يعرف سوانسون (Swanson) التفاعل ال

(٢) المصدر نفسه، ص ٨١.

«العملية التي يرتبط بها أعضاء الجماعة بعضهم مع بعض عقلياً ودافعها على مستوى الحاجات والرغبات والوسائل والغايات والمعارف وما شابه ذلك»^(٨). ويعرفه ميرريل (Merril) بوصفه سلسلة تبادلية ومستمرة من الاتصالات بين كائنين إنسانيين أو أكثر^(٩).

ويمثل التفاعل التربوي في النهاية في جملة العلاقات الاجتماعية التربوية القائمة في إطار المؤسسات التربوية التي تتيج لأطرافها (المدرسون والطلاب) درجة عليا من التوازن والتكافؤ والانفتاح وحرية التعبير والاستقلال والاحترام المتبادل وغياب الحواجز النفسية والثقافية والاجتماعية التي تعيق عملية التفاعل التربوي. وإذا كان الفعل التربوي نتاجاً لمنظومة متكاملة من العلاقات التربوية، فإن هذه العلاقات تأخذ اتجاهات ومسارات متعددة تتحدد بطبيعة الشروط الموضوعية التي تحيط بالفاعلين في إطار الحياة الجامعية. وإذا كانت العلاقات التربوية تتباين بتباين الحالات والظروف يترتب علينا أن نبحث في طبيعة هذه العلاقات وفي تجلياتها وفي مدى تأثيرها وآثارها التربوية.

١ - العلاقات التربوية

العلاقة التربوية هي مجموع الروابط الاجتماعية والعاطفية والعلمية التي تنشأ بين المعلمين والمتعلمين عبر مسارات مختلفة. يرى بوستيك (Postic) أن العلاقة التربوية انعكاس لجملة العلاقات الاجتماعية القائمة في إطار مؤسسة تربوية ما^(١٠). وتشكل العلاقة التربوية نمطاً معيارياً للسلوك الذي يحقّق الاتصال والتواصل التربوي الاجتماعي بين المحاضر والطلاب والمقررات، أو بين الطالب والطالب والإدارة والمحاضرين في إطار المؤسسة التربوية. هذا وتتحدد العلاقة التربوية بعدد من النواظم والضوابط الثقافية والاجتماعية والإدارية والأخلاقية التي يملئها المجتمع داخل المؤسسة التربوية.

أ - العلاقة التربوية الديمقراطية

هي العلاقة التي تقوم على أسس ديمقراطية، وتهدف إلى تحقيق التوازن والتكامل في شخص المتعلم بناء على معطيات العلوم السلوكية كعلم النفس والتربية. وتجسد هذه العلاقة المبادئ التربوية والنفسية الحديثة التي تركز قيم التربية الحرة والتغذية الراجعة والعلاقات الأفقية القائمة بين المعلمين والمتعلمين.

وتشكّل الأجواء الديمقراطية المناخ المناسب لبناء علاقات تربوية تفاعلية ذات اتجاه إيجابي. وهي تتيج للطلاب والمتعلمين تحقيق التواصل الإيجابي، ويتجلى ذلك في فعاليات الحوار والمناقشة والحق في الاعتراض وإبداء الرأي المخالف وتوجيه النقد الإيجابي.

وتشكّل العلاقات التربوية الديمقراطية أيضاً منطلق العطاء والإبداع في صوره المختلفة، وتلك هي حقيقة تاريخية أثبتتها التجربة الطويلة للحياة الإنسانية. فالعلم يتفتح ويزدهر في الأجواء الديمقراطية، وعطاء العقل كان دائماً وإبداء رهيّن أجواء الحرية. ومن هذا المنطلق يمكن

فالحرية والديمقراطية توأمان لا ينفصلان، وذلك في الحدود الفلسفية. لقد الحقيقة الفلسفية في صورتها النفسية والتربوية، وذلك على أثر الأبحاث والتجارب التي فاضت بها العقول التربوية في غضون القرن العشرين. فبينما يؤكد منظرو الحرية في بناء العقل والتفكير، تكشف الأبحاث والدراسات في مستوى علم النفس العقل وبناء المعرفة أمران مرهوتان بمعطيات الحرية التي يجب أن تسود في المناخ المحيط بالأطفال والناشئة.

فالسلك الديمقراطي كما يحدده مصطفى أحمد تركي هو السلك الذي الأسس التالية: (١) المشاركة الاجتماعية والمساواة في هذه المشاركة. (٢) فهم مشاؤونهم. (٣) تقبل الآخرين على أساس مبدأ المساواة. (٤) عدم اللجوء إلى العنف والاعتماد على لغة الحوار والإقناع^(١١).

والسلك الديمقراطي التربوي من وجهة نظرنا، بالإضافة إلى التحديدات الـ أبعاداً قوامها: الاستقلال والحرية وتحقيق العدالة والمساواة والإحساس بها مجتـ المعنيين بالعملية التربوية. -

وإذا كانت علاقات التوحد (Identification) تشكّل واحدة من أهم العمليات تعلم الفرد وفي اكتسابه، فإن العلاقات الديمقراطية تشكّل منطق علاقات التوحد وأ تقوم بالضرورة على أساس عاطفي قوامه الحب والاحترام المتبادل بين أطـ التربية. فالمتعلم الذي يستطيع أن يعيش علاقات ودية مع معلميه يقبل على تـ العلمية والمعرفية التي تتصل بهم بطريقة مدهشة. وعلى خلاف ذلك لا يستطيع ا المعلومات والمعارف الصادرة عن هؤلاء الذين لا يشعر إزاءهم بالحب والاحترام.

وتنمي العلاقات الديمقراطية الحب والتقدير بين أطراف العملية التربوية. ويـ الديمقراطي إلى جملة من النتائج التربوية المهمة، وهذا ما تشير إليه أغلب الاتجاه الحديثة. فالسلك الديمقراطي في مجال التربية يؤدي إلى النتائج التالية:

(١) نمو القدرات الإبداعية عند الطلاب والمتعلمين عامة. (٢) نمو الجواند وتكامل الاتزان العاطفي. (٣) نمو الجوانب الاجتماعية وتكاملها في شخص المتعلم الثقة بالنفس والإحساس بالاستقلال. (٥) نمو الجانب المعرفي بصورة متسارعة و هذا المستوى يشير مولر ولف (Muller Wolf) في بحث له حول سلوك المدرس الـ سلوك المدرس الديمقراطي يؤدي إلى نمو الإبداع والاستقلالية والاتزان العاـ الاجتماعية عند الطلاب. وعلى خلاف ذلك، فإن سلوك المدرس المتسلط يؤدي إـ الدافعية لديهم وضعف القدرة على التركيز، ويعزز ميلهم إلى الثورة والغضب^(١٢).

فالأجواء الديمقراطية تتيح للمعلم ليس أن يعلم فحسب، بل أن يتعلم عب التلميذ. وتتيح للتلميذ أن يكون معلماً في الوقت الذي يتعلم فيه. والمعلم في إطار هـ يسجل حضوره كأستاذ فحسب، بل يكون حاضراً بكل وجوده الإنساني. وهو

ب - العلاقات التسلطية

يقوم التسلط على مبدأ الإلزام والإكراه. وعلاقات التسلط هي العلاقات التي يتم بموجبها خضوع طرف لإرادة طرف آخر بالقوة. ونعني بالتسلط التربوي الميل إلى استخدام العنف في العمل التربوي. فالعلاقة التسلطية سلوك ينطوي على العنف والإكراه، ويتناقض كلية مع معطيات وأسس السلوك الديمقراطي الذي أشرنا إليه سابقاً. ويأخذ هذا العنف صورة رمزية في المراحل العليا من التعليم (المرحلة الجامعية) مثل منع الطلاب من الإعلان عن وجهات نظرهم أو من توجيه النقد أو إبداء الرأي المخالف. وهذا ما يمكن أن يطلق عليه التسلط المعرفي والذي يمكن تعريفه بأنه فرض الآراء والأفكار على الآخرين. وعلى أساس المقارنة مع تحديدات السلوك الديمقراطي يمكننا تحديد العلاقات التسلطية في صورة الأبعاد التالية:

(١) يقوم السلوك التسلطي على أساس التباين واللامساواة (المدرس - الطالب). (٢) يتم اللجوء إلى العنف بأشكاله المادية والرمزية المختلفة، ويتجلى ذلك في صورة عقوبات مختلفة: مثل التهديد والتوبيخ. (٣) يقوم على المجافاة والانفعالية والعاطفية بين المدرسين والطلاب، وذلك يعني غياب العلاقات الودية التي تجمع بين الطرفين أو بين أطراف العملية التربوية عامة. (٤) لا يسمح للطلاب أو المتعلمين عامة بإبداء آرائهم أو توجيه انتقاداتهم، ولا تؤخذ آراؤهم بعين الأهمية والاعتبار من قبل المدرسين. ومن أبعاد العلاقات التسلطية وجود أجواء الخوف وانعدام الثقة بين المدرسين والطلاب واللامبالاة التي تتجسد في الهوة التي تفصل بين الطرفين.

وغني عن البيان أن علاقات التسلط تقوم على أساس من الممارسات القمعية التي تبدأ بأبسط الإيحاءات إلى أكثرها شدة وقفازة، ومنها يمكن الإشارة إلى أبسطها والتي تبدأ بتعابير الوجه المنجهممة وتتدرج في سلم نظرات الازدراء والتجريح والاحتقار. ومن أشكال السلوك التسلطي يمكن الإشارة إلى الهزاء والسخرية والتهكم وأحكام الدونية والتخجيل والإحباط والازدراء والإهمال وعدم الاحترام وعدم التقدير... الخ.

يمكن للتعليم أن يكون أداة لترويض الناس، كما يمكنه أن يكون أداة لتحريرهم، وإذا كانت العلاقات الديمقراطية أداة التربية في تحرير الإنسان، فمما لا شك فيه أن علاقات التسلط هي أداة التربية في ترويض الناس وتكريس عبوديتهم.

ومما لا شك فيه أن العلاقات التسلطية تؤدي إلى منظومة من النتائج السلبية على المستوى التربوي. وهي على الأغلب - وخاصة في المراحل الأولى للتعليم - تؤدي إلى هدم الشخصية، وتكوين عقد النقص والدونية والصور والسلبية في نفوس المتعلمين.

وإذا كانت العلاقات الديمقراطية تؤدي إلى بناء الشخصية الإيجابية نفسياً وانفعالياً واجتماعياً، فإن علاقات التسلط تؤدي في جملة ما تؤديه إلى فقدان الاتزان الانفعالي وبناء الشخصية السلبية من دون شك. وغني عن البيان أن قدرات الطلاب على التفكير والمبادأة والنقد تنخفض بدرجة واضحة في الأوضاع التي تسيطر فيها أجواء القسر والإكراه.

وتشير التجارب الحياتية إلى أن كثيراً من الطلاب ماتوا كضحايا المواد العلمية التي تلقوا

الانفعالية والسلوكية. وهذا يعني أن العطالة النفسية تاصلت في نفوسهم وهم ضد تربيوي أفقدهم القدرة على التكيف بصورة دائمة.

وتشير الخبرات العلمية اليوم إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يتعلم جيداً في أج الإرهاب، وبالتالي فإن الخوف الناجم عن علاقات التسلط يؤدي إلى تعطيل القوى الإنسان مثل الانتباه والذاكرة والتفكير والقدرة على التحليل والتركيب.

٢ - التفاعل التربوي والحياة الاجتماعية

يعكس كل نظام تربوي جملة الروابط الاجتماعية للمجتمع الذي ينتمي إليه المنطلق يمكن القول أن العلاقات التربوية السائدة في المؤسسات التربوية انعكاس الاجتماعية التي تضرب جذورها في المجتمع. فالمؤسسات التربوية كما يرى (Durkheim) صورة مصغرة للمجتمع الكبير الذي أنتجها، وهي بذلك تحمل سماته الأساسية، وبالتالي فإن وظائف هذه الأنظمة لا تخرج عن كونها أداة الاستمرار والديمومة وفقاً لقوانين وجودها الخاصة^(١٣). ووظائف المؤسسات المدرسية بولدو (Baudelot) واستابليه (Establiet) تكمن في إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية، ولذلك فإنهما ينظران، في كتابهما المدرسة الرأسمالية في فرنسا *apitaliste en France* إلى المؤسسة التربوية الفرنسية^(١٤) بوصفها أداة إعادة إنتاج العلاقات للمجتمع الفرنسي. وما يطرحه هذان المفكران يشكل محوراً أساسياً لطروحات بيير بوردieu (Pierre Bourdieu) في كتابه المعروف بإعادة الإنتاج *La Reproduction*^(١٥) ولطروحات (Ivan Illich) في كتابه مجتمع دون مدرسة^(١٦) *Une société sans école*، وكلاهما المدرسة والمؤسسات التربوية بوصفها أدوات سياسية اجتماعية تهدف إلى تكريس الاجتماعية القائمة، وإلى إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية السائدة. لقد بينت هذه الأفكار الفكرية والتربوية كما يرى جورج سنيدير (Georges Snyders) في كتابه المدرسة *Ecole, Classe et Élite des Classes*^(١٧) إلى تبيان طبيعة العلاقة المدرسة والمجتمع، وهي بالتالي تبيّن وجود وظائف متعددة للمؤسسات التربوية لا حدود نقل المعارف والعلوم إلى الناشئة والطلاب، بل هي بالدرجة الأولى مؤسسات تصياغة الكائن الاجتماعي على صورة المجتمع الذي يعيش فيه (Snyders). لقد بينت الأطروحات، بالإضافة إلى ذلك، أن أوليات صياغة الإنسان في المؤسسات التربوية ليس بأي حال من الأحوال بالعملية التربوية في جانبها المعرفي الذي يتعلق بنقل المعلومات إلى الناشئة، بل إن ذلك مرهون إلى حد كبير بطبيعة العلاقات التربوية السائدة في المؤسسات وبطبيعة التفاعل الذي تقتضيه معايير وأنماط هذه العلاقات التربوية. فالتربوية لا تقف عند حدود نقل أكداكس المعارف، ونقل هذه المعارف لا يشكل في نه

rkheim, *Education et sociologie* (Paris: Presses universitaires de France, 1922). (١٣)

Baudelot et Roger Establiet. *L'Ecole capitaliste en France*, cahiers libres; 213-214 (١٤)

سوى إحدى وظائفها الأساسية. فوظائف المؤسسة التربوية متنوعة متعددة، وهي إذ ذاك مجتمع مصغر يتميز بنظامه الخاص وفعالياته الخاصة، وجملة هذه الفعاليات تشكل أنماطاً مصغرة لفعاليات المجتمع الكبير.

٣ - صورة العلاقات التربوية في الجامعات العربية

العلاقة التي تربط بين الجامعة والمجتمع عضوية وجوهرية. ومن هذا المنطلق فإن الجامعة التي تنفصل عن الحياة الاجتماعية للمجتمع الذي تنتمي إليه جامعة تعاني حالة مرضية تفقدها الغاية من وجودها.

فالجامعات العربية، كما يذهب فاخر عاقل، تعاني انعدام الحياة الجامعية الصحيحة، وتفتقر إلى التقاليد الجامعية، «فالجامعة ليست محاضرة تلقى أو درساً يدرس إنما هي صلة بين الأستاذ والطالب، كما أنها طريقة في الحياة والتعامل»^(١٨).

غالباً ما يشار أثناء الحديث عن الجامعات العربية إلى مواطن ضعفها وقصورها. فالجامعات العربية كما يقول محمد جواد رضا تحولت إلى مؤسسات بيروقراطية تخاف الحرية وتخشى التجديد^(١٩). فالمؤسسة التربوية لا تقف عند حدود نقل أكداص المعارف، ونقل هذه المعارف لا يشكل في نهاية الأمر سوى إحدى وظائفها الأساسية. فوظائف المؤسسة التربوية متنوعة متعددة، وهي إذ ذاك مجتمع مصغر يتميز بنظامه الخاص وفعالياته الخاصة، وجملة هذه الفعاليات تشكل أنماطاً مصغرة لفعاليات المجتمع الكبير. وفي الوقت الذي يجري فيه البحث عن طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع والتفاعل الاجتماعي القائم، فإن العلاقة التربوية والتفاعل التربوي في إطار المؤسسات التربوية يشكلان صورة مصغرة لما يجري في إطار المجتمع الكبير. ولكن خصوصية هاتين الفعالتين التربويتين وأهميتهما تكمنان في دور كل منهما في تكريس ما هو قائم في المجتمع، وإعادة إنتاجه. وفي هذا الخصوص يمكن الإشارة إلى المبدأ الأساسي لفلسفة جون ديوي، والذي تجلّى في كتابه *المعرف ديمقراطية التعليم*. لقد أراد ديوي لمجتمعه الأمريكي أن ينهض عبر ستباسة تربوية تعتمد المبدأ الديمقراطي التربوي كفلسفة لبناء مجتمع علمي متطور، والعلم كما يراه ديوي أمر لا يمكن له أن يكون من غير أسس ديمقراطية.

وفي الوقت الذي يكون فيه التجديد أمراً تقتضيه الضرورة التاريخية يبرز دور المؤسسات التربوية الجامعية العليا التي تتميز بدرجة عليا من المرونة والقدرة على تمثل الجديد وإعادة إنتاجه. فالمؤسسات المدرسية ماقبل الجامعة مؤسسات تعيل إلى المحافظة، وتأثر التغيير فيها مرهونة بدورات زمنية مديدة. ومن هنا تأتي خصوصية المؤسسة الجامعية في تحقيق دورة التغيير السريع بما يلبي احتياجات الضرورة التاريخية. وتتجلّى هذه الخصوصية في عدد واسع من المعايير يمكن أن نذكر منها:

١ - التواصل الحضاري والعلمي الذي تحققه المؤسسات الجامعية مع الثقافات

٢ - البنية العلمية والثقافية المتطورة لأعضاء الهيئة التدريسية الذين أتت اللقاء المباشر والعائني لد التطورات الحضارية في بلدان دراستهم وفي بلد ورحلاتهم العلمية.

٣ - هامش الحرية الكبير والمتاح لأعضاء الهيئة التدريسية بالقياس الى التعليمية في المؤسسات ما قبل الجامعية.

٤ - الوزن الاعتباري والمهم الذي يشكله الأستاذ الجامعي في الحياة الاجت وذلك يعطيه إمكانات أوسع في توجيه العملية التربوية وفقاً للسياق الحضار التأثير في بنية الحركة العلمية والاجتماعية في المجتمع.

٥ - خصوصية البنية الطلابية للجامعة والتي يمكن لها أن تسهم في الحد بدرجة واسعة عبر منظمات الطلبة ونشاطاتهم الفكرية والعلمية والاجتماعية. الأحيان يحتل الطلاب الموقع الريادي في توجيه الحركة الاجتماعية نحو مسارها

وفي النهاية لا بد من القول إن إسهام المؤسسة الجامعية في حركة التطور إلى حد كبير بطبيعة الفعاليات القائمة فيها، وبمستوى تطور عملية التفاعل التي تحرر الجامعة أو تحرر العلاقة التربوية من صيغتها التقليدية المحافظة. فالجامعة الاجتماعي بالدرجة الأولى، مكان ينشط فيه الناس ويتكونون ثقافياً وروحياً وفك متعددة. وهي ليست مكاناً يتلقى فيه الطالب علماً فحسب، أو مكاناً يلقي فيه العلم هي بالإضافة إلى ذلك مكان يعيش فيه الناس مدرسين وطلاباً، ويتفاعلون ونشاطات متنوعة. وهم يشكلون مجتمعاً تسوده علاقات اجتماعية تربوية. هذه ا لحمة الحياة الجامعية وعراها، وبالتالي فإن مستوى تطور الحياة الجامعية والمؤ مرهون بمستوى وتطور العلاقات الاجتماعية التربوية فيها. إن تحرر العلاقة صيغتها التقليدية أمر مرهون في نهاية المطاف بإرادة الفاعلين في هذه المؤسسة بالدرجة الأولى يتمثلون في أعضاء هيئة التدريس في أطر علاقاتهم مع الطلبة.

ثانياً: مشكلة البحث ومسألته

يعد التفاعل التربوي في المؤسسة الجامعية بمثابة الدورة الدموية في جسد وهو الإطار الذي تتعاقب فيه كافة أطراف العملية التربوية من مدرسين و تصورات ومقررات لتشكل لحمة الحياة الجامعية وسداها. وإذا كانت المؤسسة ا نظاماً يقوم بوظائف حيوية، فإن درجة التفاعل التربوي بين أقطاب العلاقة ا سلامة العمل التربوي وفاعليته، ومؤشر لدى تادية هذه المؤسسة لوظيفتها وم سليم ومعافى.

لقد بيّنت دراسة سابقة أجريناها حول التفاعل التربوي بين الطلاب وا التفاعل التربوي الديمقراطي بين الطرفين، فالعلاقات التي تؤكد هذه الدراسا

١ - منهج البحث وأداته

تتطلب منهجية البحث من تحليل مضمون المقال لإجابات أفراد العينة من المدرسين في الجامعة عن سؤال رأي مفتوح حول نتائج الدراسة التي أجريت على الطلاب ورأيهم في مقدمات التفاعل التربوي وشروطه في الجامعة.

وأداة الدراسة هي استبانة قوامها صورة لنتائج الدراسة التي أجريت على الطلاب، ومفادها أن وتيرة التفاعل التربوي منخفضة في الجامعة وفقاً لأراء الطلاب. وعلى المدرس هنا أن يعلن رأيه في هذه النتائج وفي رأي الطلاب من جهة، وعليه أن يحدد من جهة أخرى أسباب انخفاض وتيرة التفاعل التربوي في الجامعة. وقد وزعت الاستبانة المعنية على عدد كبير من المدرسين في كليات الجامعة، واستطعنا أن نحصل على عينة مكونة من إجابات ٤٢ مدرساً ومدرسة في الجامعة.

نص الاستبانة بالصيغة التي وجهت فيها إلى السادة أعضاء الهيئة التدريسية:

الأستاذ/الدكتور عضو الهيئة التدريسية:

تحية طيبة:

يسرنا أن نضع سيادتكم في صورة نتائج الدراسة التي أجريناها على عينة من طلاب الجامعة حول بنية الاتصال التفاعلي بين الطلاب وأعضاء الهيئة التدريسية، ونرجو من سيادتكم إبداء رأيكم حول نتائج هذه الدراسة وفي أسباب انخفاض درجة التفاعل التربوي في الجامعة. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير.

السيد/الأستاذ/الدكتور عضو الهيئة التدريسية:

تفيد الدراسة التي أجريت على عينة من طلاب كلية التربية حول التفاعل التربوي في الجامعة بما يلي:

يؤكد أفراد العينة بأن معظم أساتذتهم:

- غير متحمسين لعملهم.
- لا يفهمون نفسية طلابهم.
- لا يعرفون ظروف حياة طلابهم.
- غير قادرين على إثارة حماسة طلابهم للمناقشة.
- لا يرحبون بطلابهم أثناء الساعات المكتبية.
- لا يناقشون طلابهم بجدية.
- يفرضون آراءهم.

برأيكم ما مدى مصداقية رأي الطلاب، وما الأسباب التي تجعل الطلاب يشعرون بذلك؟ ومن ثم إذا كانت آراء الطلاب صحيحة نسبياً، فما عوامل هذه الظاهرة وأسبابها في جامعة

الاجتماعية والجامعية التي تعيق عملية التفاعل التربوي وبناء علاقات تربوية إيجابية الإشارة إلى مجموعة من هذه العوامل وهي:

أ - عدد الطلاب

يؤكد جميع المدرسين ومن غير استثناء على أن عدد الطلاب الكبير هو الذي التواصل التربوي، فالمدرس الجامعي لا يستطيع أن يتواصل مع أعداد كبيرة من الطلاب، بل يبلغ عددهم بالمئات وأحياناً بالآلاف. ولو كرس بعضهم وقته بالكامل لما استطاع عن أسئلة الطلاب التي لا تتوقف، وهي غالباً أسئلة تتصل بالمواد المقررة والمحذورة والامتحانات.

وتقول د. ليلي المالح: «لا يمكن مد جسور حقيقية بين الطلاب والأساتذة بغض بالمئات».

ويقول د. عمر موسى باشا: «إن العدد الكبير هو أحد الأسباب المهمة لضعف التواصل التربوي، ولو ترك باب النقاش مفتوحاً لضاع الوقت قبل أن يعطي المحاضر شيئاً المطلوب والمحددة في فصل واحد وبرنامج واحد».

ويقول د. أحمد حامدي: «عندما يدخل الأستاذ إلى قاعة فيها أكثر من مائتي طالب، كيف يستطيع أن يفهم نفسية الطلاب ويتعرف عليهم، فالعدد الهائل من الطلاب للأستاذ بالنقاش وأحياناً يشتكي المدرسون من أن الطلبة لا يحبون المشاركة». فكأنه درس على حد تعبير د. شوقي المعري أن يتعرف على ظروف الطالب وأحواله وهو مئات الطلاب، بل الآلاف، وقوفاً وجلساً على المقاعد والأرض، وكيف يستطيع أن يلامسهم ولا يلامسهم؟

ب - المحدودية الزمنية لنظام الدراسة الفصلي

تسير الدراسة في جامعة دمشق وفقاً للنظام الفصلي الذي ينتظم لمدة ثلاثة على خلاف النظام السنوي الذي تستمر فيه الدراسة لمدة عام كامل تقريباً. وقد أشد من المدرسين إلى التأثير السلبي لهذا النظام في طبيعة الدراسة والتفاعل التربوي فالنظام الفصلي على حد تعبير د. محمود سالم لا يتيح وقتاً كافياً لعلاقات طبيعية الأساتذة والطلبة.

ويقول د. حامد فرزات في هذا الخصوص: «إن الجامعة تحولت إلى مدرسة ثانوية ويعود ذلك بشكل أساسي لنظام الامتحانات الفصلي». فالطالب لا يكاد يخرج من الصف يدخل في آخره، والأستاذ لا يكاد ينتهي من تصحيح حتى يستقبل امتحان آخر. ولا هذه الأجواء لتواصل تربوي مثمر بين أطراف العملية التربوية. ويضاف إلى ذلك كبير من العطل والأعياد الوطنية والدينية التي تقلل من فعالية النظام الفصلي».

د - موقف الطلاب من المدرسين

أشار عدد من المدرسين إلى أن الطلاب لا يدركون أوضاع المدرس في الجامعة، وخاصة أوضاعهم السكنية والمادية وظروف الحياة، وعندما يدرك الطلاب هذه الصعوبات التي تحيط بالمدرس الجامعي، فإنه سيدرك بعض أرجح القصور في إمكانية بناء علاقات ديمقراطية متكاملة في الجامعة.

هـ - الظروف المادية للمدرسين

أشار بعض المدرسين أفراد العينة إلى الظروف المادية التي تحيط بالمدرس الجامعي كأحد أهم الأسباب الحقيقية لانخفاض وتيرة التفاعل التربوي، وهي الظروف التي تتعلق بالسكن والدخل المادي والمواصلات، وهي كما يشير المدرسون، جميعها غير مواتٍ لعملية تفاعل تربوي بناءة. فالرواتب المتدنية كما يقول أحدهم تدفع الأستاذ للبحث عن موارد رزق أخرى كي يجنب أطفاله وأسرته مذلة الفقر. وهذا يمنع الأستاذ من الانصراف الكلي إلى عمله وأبحاثه.

و - المستوى العلمي للمدرس

أشار بعض المدرسين، وهم قلة، إلى ضعف المستوى العلمي للمدرس كمنبع لانخفاض الفاعلية التربوية بين المدرسين والطلاب.

وغني عن البيان أن المدرس الجامعي الذي يفتقر إلى الكفاءة هو غالباً المدرس الذي يرهب الحوار مع الطلاب ويخشاه لأن الماحكة الفكرية مع الآخر تؤدي إلى استجلاء الجوهر الذي يكون خادعاً بالنسبة إلى المدرس الذي لا يمتلك الكفاءة العلمية في ميدان اختصاصه العلمي.

ز - الأوضاع الاجتماعية للطلاب

أشار عدد من المدرسين، وهم نسبة قليلة، إلى الأوضاع المتردية للطلاب والتي تجعله في منأى عن عملية التواصل الاجتماعي. فالتهموم اليومية والشخصية والعائلية للطلاب على حد تعبير د. علي الجبائي تجعل منهم في معظم الأحيان خشباً جامداً في المحاضرات.

ويشير د. حسن أمين الفتوى بوضوح إلى ظروف الطلاب الاجتماعية الصعبة (المعيشة - السكن - التنقل) وهي تؤدي إلى انحطاط الوضع التعليمي والتأثير سلباً في العلاقة بين المدرسين والطلاب.

ح - نظام القبول الجامعي

أشار عدد كبير من المدرسين إلى التأثير السلبي لنظام القبول الجامعي في عملية التواصل التربوي. يقول د. علي الجبائي في هذا الخصوص: «إن نظام القبول في الجامعات عندنا مغلوط

ط - طرق التدريس

أشار عدد من المدرسين إلى تأثير الأسلوب التلقيني في العمل التدريسي بوجه عام وانحدار التفاعل بين المدرس والطالب. وهذا الأسلوب التربوي يؤدي إلى المناقشة والتفكير أيضاً، فالطالب معني باستظهار المعلومات فحسب، وهذا يتنافى مع إرادة التفاعل القائم على التفكير والنقد والمناقشة وتبادل الرأي. ومثل هذا الأسلوب يؤدي إلى غياب الحماسة والتفاعل والنشاط أثناء العملية التربوية.

٣ - تعقيب على آراء المدرسين

تبين إجابات السادة أعضاء الهيئة التدريسية بوضوح كبير منظومة من العمل التي تمارس دورها في خفض وتيرة التفاعل التربوي في إطار الجامعة، ولكن من أجله في هذا السياق هو أن المدرسين قلما أشاروا إلى أهمية بعض المتغيرات التي تساهم في المجتمع، وإلى طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تجد لها انعكاساً حيوية في الجامعة.

لقد لمح السادة أعضاء الهيئة التدريسية إلى تأثير العوامل الفورية والمباشرة عملية التفاعل التربوي في إطار الحياة الجامعية. وقد يعود ذلك بالدرجة الأولى إلى الموقف لأن التفكير ذا الطابع الشمولي كثيراً ما يحتاج إلى وقفة تأمل ذات طابع فيها المرء أن يتوغل في عمق الحقيقة الاجتماعية.

ويبدو لنا أن الأستاذ الجامعي ينظر إلى العلاقة الديمقراطية التربوية من وهي أن هذه العلاقة يجب أن تكون رهينة التفاعل الصفّي والحوار والمناقشة التي أن يجريها في قاعة المحاضرات، علماً بأن الحقيقة الديمقراطية تكمن في أسلوب العمل وطريقتهم في التعامل.

إن البعد الديمقراطي للعلاقة التربوية يكمن في طبيعة الذهنية السائدة وما الذهنية الكيفية التي ينظر فيها كل من أطراف العملية التربوية إلى الآخر في الجامعة، إذ غالباً ما يلاحظ وجود حواجز نفسية واجتماعية تمنع عملية التواصل والاجتماعي بين المدرسين والطلاب. فالمدرس يعتمد مبدأ المحافظة على المسافة الفاصلة بينه وبين الطلاب (Faire la Distance)، وغالباً ما ينظر إلى الطالب نظراً لا تغاير فيها ولا لون، وهذا يعني غياب العلاقات الأفقية المتكاملة والمتوازنة إلى حقيقة في إطار العلاقة القائمة بين مختلف أطراف العملية التربوية.

هذا، وتمثل رؤية الأستاذ الجامعي نفسها، التي استعرضناها، حول العلاقة جديداً من أبعاد ضحالة هذه العلاقة بين أطراف العملية التربوية في الجامعة. و حالة الواقع الاجتماعي ذات الطابع الأبوي ما زالت تهيمن على النفوس في إطار ال

والتقدير والتشجيع والمودة والتعامل الديمقراطي الذي يؤكد الاتجاه الأفقي في عملية التواصل الجامعي.

ولم يحدد المدرسون في سياق حديثهم عن العلاقة التربوية الجوانب الإنسانية لطبيعة العلاقة، وخاصة هذه التي تجمع بين الطلاب والمدرسين في مناسبات عدة تبدأ من المشاركة في الرحلة العلمية إلى المشاركة الوجدانية في بعض الطقوس الاجتماعية والجامعية والتي يمكن للمدرس الجامعي أن يشارك فيها.

ولا بد من القول إن الأعداد الكبيرة ليست في مصلحة البناء التربوي أو تفاعلاته، ومع ذلك إلا يمكن القول بأن ما هو مهم هو الانطباع الذي يسجله الطالب عن الأستاذ الجامعي؟ فالتفاته المدرس المشحونة بالود والتقدير والاحترام لبعض الطلاب قد تكون رسالة فيها أعق وأنبل الإشارات التي تؤكد على المحبة والتفاعل والتواصل بين أطراف العملية التربوية، وقد يكون لها أكبر الأثر في بناء شخصية الطالب وبعث الثقة والأمل في نفسه □